بقاع الجمال

وأثرها في الشعر والادب

محمد عبد الغني حسن

في كل اقليم من أقاليم الدنيا بقاع جميلة ، ومواطن تفتن النظر وتختلب اللب وتقف أمامها العيون معجبة لتستوعب جمالها ، وتحاول ان تصل الى سر الحسن والملاحة فيها

ومن جمال البقاع ومحاسن الاصقاع ما يكون وليد الفطرة ، وصنع الطبيعة كالأنهار الجارية والوديان المترجة ، والجبال الرعن ، والقمم الشم ، والغدر الرائقة والرمال المنبسطة او المتموجة كثباناً خلف كثبان ، وآكاماً إثر آكام

ومن جمال البقاع ما يكون مجلوباً لا جبلة ، وصناعة لا فطرة ، كالبحيرات الصناعية والغدر المنشأة ، والحدائق المنضدة تنساب فيها الجداول . وتقام فيها النضائد . وتشذب فيها الخمائل ، وتنضد فيها الأرائك ، وتفرش أرضها بالحصى الملون ، والرمل المتناثر ، وتكسى أعطافها بالعشب الناضر ، والكلأ الأخضر

وهذه البقاع الجميلة خليقة ان تسمى مواطن الجمال ، ولها في الادب أثر كبير ، ولها عليه سلطان واسع . وهي ألزم للأديب لزومها للمصور البارع او الرسام المبدع . واذا كانت في تاريخ الفنون الجميلة جمهرة صالحة من اللوحات الخالدة سجلت عليها ريشة المصور لطائف من الجمال فان في الادب جمهرة صالحة من قصائد رائعة ومن قطع خالدة سجلت جمال هذه البقاع في شعر جميل او نثر فني بديع

ولا يستقل بذلك الادب العربي وحده ولا ينفرد به ، ففي الآداب الأجنبية كثير من التراث الأدبي اهتم بمواطن الجمال تصورها وأحسن تصويرها

على ان هذه البقاع الجميلة قد تكون من ناحية أخرى مصقلة لعقل الشاعر او الكاتب كما تكون وحياً له والهاماً لأدبه

فمنطقة نهر (الايفون) بانكلترا من بقاع الجمال . ويكفيها فخراً أنها أنجبت للبشرية أعظم شاعر عرفته الى اليوم وهو « شكسبير » ولقد أعجبنا حين زرنا هذه المنطقة بالجمال الطبيعي السائد

فيها والجبال التي يرسمها . ولم تكن غير إلهامها الصحيح بالأريج الناظر أن يعجب الى « شاكسبير »

ولا ريب أن أعمق قرأوا الشاعر الانكليزي « Wordsworth » وردسورث أسرارها وفهم تعدديه الطبيعة وتفهم بحواسها حتى أنه ليكاد يذوب فيها . ونعد عقد الاستاذ « كاسبانيك » المربي الانكليزي المعاصر فصلاً في كتابه عن التربية اختص به شاعر الطبيعة « وردسورث » وبين ضرورة تعويد الطفل مواطن الجمال ليكون ذلك عنصراً من عناصر تربيته

وهذا الشاعر مدين بحبه للطبيعة الى بقعة من بقاع الجمال هي منطقة « البحيرات » في انكلترا . فقد عاش فيها وسمع خرير مائها ، وحفيف أشجارها وتسلق بعض جبالها — كجبل كونستون — وسجل كثيراً من هذه المناظر الفاتنة الساحرة في شعر تصويري جميل . وكانت قرية « جراسمير » الهادئة الجميلة في منطقة البحيرات أحب مواطنها الى نفسه فعاش فيها ومات تحت ثراها — وأتيح لنا أن نزور هناك قبره ويجانبه قبر أخته التي كانت تهيم أيضاً بهذا الجمال

وكان الشاعر الأميركي المشهور « هنري دافيد ثورو » يعشق الطبيعة ويأنس اليها وبنى له كوخاً قرب غدير (والدن) أنس عنده الطيور والحشرات والأسماك . وفهم تغريد الطير وصرير الجنادب وعاش في عزلة عن الناس أخرج في خلالها كتابه الخالد (والدن) الذي يعد بدعاً في الأدب الانكليزي

ولقد كانت بحيرة « ليمان » بسويسرا الهاماً للشاعر الفرنسي العظيم « لامارتين » وقصيدته « البحيرة » مشهورة مذكورة مترجمة الى الأدب العربي

وفي ولاية « هامشير الجديدة » بأميركا الشمالية . وعلى ضفافي نهر « ميرماك » الجميل غنى « جايمس رسل لويل » الأميركي كثيراً من أناشيده الخالدة . وكان مثل صاحبه « ثورو » يفهم الطبيعة كل الفهم . ويحسن الأصغاء اليها اذا صوتت بالنسيم الرقيق أو الزعزع الهتّان . وكتابه العظيم « من شباك غرفة مطالعتي » أثر من آثار الجمال الطبيعي في نفسه .

***

ولشعراء العرب نصيب عظيم من تصوير جمال البقاع ، وتسجيل المناظر البهجة الساحرة التي تركت في نفوسهم أثراً . وهذه البقاع الجميلة كثيرة في أنحاء المملكة العربية الاسلامية وهي متباينة المناظر ، متنوعة المشاهد ... ففي شبه الجزيرة الرمل والصخر والأباطح الفيح التي تسيل بأعناق المطايا . . . وفي العراق الأنهار والمحلات والجسور ، والبرك والقصور . وفي الشام الغوطات الكثاف كغوطة دمشق . وفي الاندلس الرياض والأزهار ، والبراعم والنوار والوديان والأنهار . وفي مصر النيل والمراكب فيه صاعدات منحدرات .

ولا شك أن البحتري قد وفق التوفيق كله وأجاد الاجادة كلها في وصف (بركة المتوكل)

فقصيدته فيها تجمع الى حسن التصوير حلاوة الوزن وحسن التقفية ولا شك أن القارىء يهتز لوصف البركة والنجوم منعكسة على سطحها بقوله

اذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

والقصيدة معروفة مشهورة متداولة فلا داعي الى تدوين أبياتها. والبحتري جيد الاوصاف مبدع فيها وليس كثير من الشعراء أوتي تلك الموهبة فهي تحتاج الى العين الحساسة الدقيقة — كعدسة المصور الجيدة — والى الشعور المرهف، والى القدرة الشعرية في التعبير عن الجمال

ولقد أبدع البحتري أيما ابداع في وصفه الرياض الجعفرية في قصر الجعفري الذي بناه المتوكل . وهي بقعة شهيرة من بقاع الجمال في الأدب العربي . اسمعه يقول :—

مخضرة والغيث ليس بساكب ومضيئة والليل ليس بمقمر
ملأت جوانبها السماء وعانقت شرفاتها قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته ففناؤه من لجة غمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثني أعطافه في سائح متفجر

وليس من الضروري ان يكون المكان مفرطاً في الجمال أو بالغاً الغاية في الحسن الطبيعي ليحث ذلك الشاعر على تسجيله . فقد تكون البقعة حبيبة لما للشاعر فيها من ذكريات ، ولما له فيها من صبابات مضت ، وعلاقات انقطعت . وحينئذ يذكرها بالحسرة ويود لو عاد سالف زمانها ، ومنصرم أيامها «كالحجون» و«الصفا» فقد ورد الشعر بخصوصها كثيراً وهما ليسا بموطن فائق الجمال

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

على انه من المحقق ان في شبه الجزيرة القاحلة ودياناً كثيرة رأى الشعراء فيها نوعاً خاصاً من الجمال فدوّنوه وتغنوا به

وأكثر الأودية حظاً ، وأخلدها اسماً هو الذي خلدته حمدونة الاندلسية بهذه الأبيات الرائعة ، وقد نسبت في بعض الكتب الى ابي المطلّي :—

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألذ من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وبعض البقاع — كبعض الأناسي محظوظ — تصادفه الشهرة ، وتدور حوله هالة السعد ، فيدور اسمه ، ويخلد ذكره ، لبيت قاله شاعر ، او سطر دوّنه ناثر . وأصدق مثال على ذلك

« شعب » بوّان . فقد خلدته أبيات المتنبي التي منها هذا البيت . —

مغاني الشعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان

***

واذا نظرت الى الأدب العربي وجدت ان أكثر ما يتعلق منه بالوصف ومحاسن الطبيعة يرجع الى الأندلسيين . ولهم في ذلك الحق كله . فبلادهم جميلة ناضرة . ورياضهم مثمرة زاهرة وقد خرج العرب من الجدب الى الخصب ، فأحسنوا الوصف وأبدعوا المقال . وحقّ لابن خفاجة أن يقول : —

ان للجنة بالأندلس ... مجتلى مرأى وريّا نفس

فسنا صُبْحتها من شنب ... ودجى ظلمتها من لعس

فاذا ما هبت الريح صبا ... صحت واشوقي الى الأندلس !!

ولقد ذكر الشعراء الاندلس على طريقة التعميم . وبعضهم خصص فوصف وادياً بعينه ، أو روضة بذاتها أو جبلاً بنفسه فجاء وصفه كالأصل والصورة في المرآة — وممن ذكر الاندلس على وجه التعميم ابن سفر المريني حيث يقول : —

وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها في الوشي صنعاء

أنهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء

وللهواء بها لطف يرق به ... من لا يرق وتبدو منه أهواء

***

ومن المواطن الجميلة في الاندلس « العامرية » وهي نزهة جميلة من نزه الدنيا . فيها الشجر الملتف ، والغصن المورق ، والطير المغرد ، والجدول المصفق ، والزهر الناضر والنرجس الضاحك ، أنشأها « المنصور » المشهور بن أبي عامر ووصفها ابن العريف بقوله من أبيات طويلة : —

انظر الى النهر فيها ... ينساب كالثعبان

والطير يخطب شكرا ... على ذرا الاغصان

والقضب تلتف سكرا ... بميس القضبان

والروض يفتر زهرا ... عن مبسم الاقحوان

والنرجس الغض يرنو ... بوجنة النعمان

وكانت اشبيلية جميلة الموقع ، جميلة الضواحي فاتنة المساكن . وبها من الوديان كثير . الا ان من بين هذه الوديان الكثيرة نذكر وادي الطلح في شرقيها وكان يرده الزائرون ، طلباً للعافية والتماساً للراحة ، واستجماماً للنفس . وفيه ما في وديان الأندلس من الماء والنماء . وكان

الشاعر المعروف نور الدين بن سعيد المغربي يتردد عليه في صحبة حبيب ، ويأنس من رقيب فذكره بأبيات كثيرة منها هذه الأبيات : —

وأذكر بوادي الطلع عهداً لنا لله ما احلى وما اطيبا
بجانب العطف وقد مالت الأغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين ألحانها وليس الا معجباً مطربا

ولشعراء الشام شعر كثير في وصف الطبيعة وذكر مواطن الجمال. ولعل اليتيمة التي سجلها الشاعر بقوله

جوها سجسج وفيها نسيم كل غصن الى لقاء يميل
أيه يا ماء نهرها العذب صاصل حبذا يا زلال منك الصليل
أيه يا ورقها المرنة غني لحياة النفوس منك الهديل

لعلها مما يستحق التصوير في هذا الشعر الرقيق

(ونهر بردى) بالشام من أهم البقاع وأكثرها دوراناً في الشعر العربي. وقد ذكره المرحوم احمد شوقي بك في قصيدته التي اولها : —

سلام من صبا بردى أرقّ ودمع لا يكفكف يا دمشق

كما ذكره في كثير من قصائده الشاميات... وذكره أيضاً الشاعر الدمشقي حسان بن نمير يخاطب صلاح الدين الأيوبي : —

(ويا بردى) لازال ماؤك بارداً وماء الحيا من ساحتيك نمير
أبي الحيش الا بين أكناف جلّق وقد لاح فيها أنجم وبدور
وكم عشى (جيرون) سرب جآذر حبائلهن الماء وهو نفور

والآبار والعيون من مواطن الجمال الخالدة المخلدة في الشعر . وقد رأيتُ بعض العيون المشهورة في سويسرا وفرنسا وانكلترا وأدركت سر الجمال فيها . الا أن الجمال هناك صناعي مجلوب بالتطرية والتجميل ولكنهُ على كل حال جمال

وفي الشعر العربي كثير من الآبار التي خلدها الشاعر ، وأبقاها الشعر . ومن ذلك (بئر الحجيلاء) التي قال فيها يحي بن طالب الحنفي متشوقاً : —

ألا هل الى شم الخزامى ونظرة الى قرقرى قبل الممات سبيل
فاشرب من (ماء الحجيلاء) شربة يداوى بها قبل الممات عليل ؟؟

ومنها أيضاً (بئر خدوراء) التي سجلها جعفر بن علبة الحارثي بقوله : —

ألا هل الى ظل النضارات بالضحى سبيل وتغريد الحمام المطوق ؟
وشربة ماء من (خدوراء) بارد جرى تحت أفنان الأراك المسوق ؟

ومن بقاع الجمال في الشعر العربي الديورة جمع دير وكثيراً ما ورد وصفها في الشعر وتسابق الشعراء في تسجيل محاسنها والاشادة بجمالها . ويظهر لمطالع وصفها أنها لم تكن ديار عبادة فحسب ولكنها كانت بقعاً من بقاع الجمال تفنن أشد الصناع في توشيتها وتحليتها ، وتبدع يد الفن في اقامتها وتشييدها ويحيط ذلك كله بدائع من الطبيعة ما بين ماء يجري ، ونسيم يسري ، وشجر تتدلى أثماره ، وتتعانق أغصانه ، وزهر أنيق الألوان ، مختلف الأشكال ، وغدر جارية وعيون سائبة

والشواهد على ذلك من الشعر كثيرة مدونة في كتب الادب ، منثورة في معاجم البلدان وللصنوبري الشاعر الوصاف في ذلك كلام ينفذ ونفس يطول . اسمعهُ يقول في (دير زكّى) قرب الفرات : —

معاهد بل مآلف باقيات بأكرم معهدين ومألفين
يضاحكها الفرات بكل فن فتضحك عن نضار او لجين
كأن الأرض من حمر وصفر عروس تجتلى في حلتين
كأن عناق نهري دير زكّى — اذا اعتنقا — عناق متيمين
أيا متنزهي في دير زكّى ألم تك نزهتي بك نزهتين ؟
ويا سفن الفرات بحيث تهوي هُويَّ الطير بين الجهتين
تطاردُ مقبلات مدبرات على عجل تطارد عسكرين
تُرانا واجدين كما عهدنا بوصل لا تنغصهُ بين ؟؟

فهذه الابيات تصور لك الدير صورة جميلة وقد ضاحكته مياه الفرات ، وبدت فيه الازهار كأنها وشي ثياب العروس ، وجرت أمامه سفن الفرات صاعدة ومنحدرة ...

على أن لكشاجم الشاعر المشهور وصاحب الريشة المصورة الماهرة أبياتاً في وصف دير القصير بمصر يقول فيها : —

أما ترى الروض كيف بكى الحيا عليه فأضحت ضاحكات زخارفه
تسربل موشيَّ البرود وأعلمت حواشيه من نواره ومطارفه
وقد نثر الوسمي بالطل فوقهُ لآلىء كالدمع الذي أنا ذارفه
وأعرس فيه بالشقيق نهاره فأشبع من صبغ المذارى ملاحفه
ولاحظهُ بالنرجس الغض أعين فواتر اغفاء الجفون ضعائفه ...

وقد أسلفت كل هذه البقاع الجميلة ، والمواطن الفاتنة ثروة كبيرة الى الأدب العربي خليقة بالدرس والمعاودة من حين الى حين